

العلاقات السياسية بين دولة الفونج وأثيوبيا

د. سيف الإسلام بدوى بشير *

Abstract:

This study aims at the relationship between Ethiopia and the Sudan on history from the early times until now .

This relationship emerged between the bad – Terms and the good ones according to the diplomacy and policies adapted within the courts of the two countries . However, the desire of maintaining peace and law was always needed .

This study is also an attempt to give information about the early regional conflict surrounding the Nile water and its influences on the two neighbors and the other Nile Valley's countries respectively, an issue which has been put as a main sphere to the imperialism strategy about the Nile Basin in the area .

المدخل :-

نشأة مملكة الفونج الإسلامية^١ (السلطنة الزرقاء) خلال الإعوام (1504 - 1821م) ، كحلف قبلى عسكرى بين الفونج والعبدلاب ، والذى أسهم بدوره فى تحقيق الإنتصار على الحكام والعنج عند مدينة "أرجى" من العام (910هـ/1504م). والقضاء على بقايا النفوذ المسيحي لمملكة علوة العريقة والتأسيس لسلطنة سنار ، كلقوى الممالك الإسلامية نفوذاً فى السودان وادى النيل إبان العقود الميكرة من القرن السادس عشر للميلاد . والتي امتدت من تقاطع خط العرض الشمالى 13 ، 33 وخط الطول الشرقى 33 ، 38 ، الى الشلال الثالث شمالاً وباتجاه الأجزاء الشمالية الشرقية للبحر الأحمر الى حدود منطقة كردفان غرباً . وبذا فقد لعبت سلطنة الفونج الإسلامية سنار دوراً سياسياً هاماً فى المنطقة من السودان وادى النيل ظل متصلاً حتى الإحتلال التركى المصرى فى عام (1821م) ، وذلك من خلال العمل على الدمج والإستيعاب للكيانات القبلية إدارياً وسياسياً والبسط لنفوذ وهيبة الدولة وأمتداده ناحية ممالك "نقلى" والمسبغات" فى الغرب وباتجاه حدود التاكا (كسلا) ومناطق "البجة" "البلو" "والبنى عامر" فى الشرق والشمال الشرقى ، قبالة المرتفعات المتاخمة للهضبة الأثيوبية ، والتي قامت عندها مملكة مسيحية عريقة فى التاريخ تمدنا وحضارة .

* أستاذ مساعد بقسم التاريخ - كلية الآداب والباحث بمركز دراسات حوض النيل بجامعة النيلين

^١ أصل الفونج ونشأت دولتهم لازال موضع خلاف بين المؤرخين ، أنظر :-

O.G.S. Crawford , The Fung Kingdom of sennar, (Gloucester, 1951) ; P.M. Holt, "A Sudanese Historical Legend : The Funj Conquest of soba" Bulletin of The School of Oriental and African Studies , Vol. 23, London University (1960) , PP. 1-12 ; idem "Funj Origins : A Critique and New Evidence" Journal of African History, Vol. 4 (1963) , PP. 39 – 55; Y.F. Hassan , "The Omayyad Geneology of The Funj" , Sudan Notes and Records Vol . XLVI , (1965) , PP. 26 – 32,

تعود نشأة مملكة أكسوم (AKSUM) ببلاد الحبشة (أثيوبيا) بالمرتفعات من الهضبة الأثيوبية بالقرن الأفريقي ، إلى القرن الأول الميلادي - تقريبا - أو ربما قبله بقليل . ثم توسعت إقليميا في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي من المناطق والهضاب المرتفعة التي تختلف عن السفوح المطلّة على المناطق المستوية المروية إلى سودان وادي النيل من الجنوب والجنوب الشرقي ، والإصقاع الشمالية الشرقية . وتجنّ إهتمامات السلطة ببلاد الحبشة بالنطاقات السهلية والسفوح ، لدواعي الأمن والحماية للمناطق المرتفعة والهضاب ، وتوفير القدر الكافي من الرعاية لمعايير وطرق التجارة إلى سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي وبلدان شبه الجزيرة العربية وحوض الرافدين وشرقي البحر الأبيض المتوسط مع التبادل والإكتساب للمؤثرات الخاصة بالأمم عرقيا ولغويا وحياتيا وحضاريا . وما طرأ على أثيوبيا من "فترات" و"مراحل" تاريخية من العزلة المؤقتة والتي فرضتها على نفسها ، لم تقف سدا يحول بينها والتبادل والإتصال بالعالم القديم والمناطق المجاورة والمحيط .

وتبعا لتلك المميزات الجيوبوليتيكية لأثيوبيا ، ظل النفوذ السياسي المركزي للدولة منحصرًا في المرتفعات والهضاب إلى جانب ما انتظم البلاد في الأشكال العمرانية والحضارية . في العمارة والبناء والتشييد للمباني التذكارية والقصور خاصة الملوك والإباطرة والأبنية الأخرى المتنوعة من الكنائس للحرقة الفخمة التأسيس . والتي من جملتها مجموعة كنائس الملك الزاغوي لأليببالا (Lalibela) الشهيرة المنحوتة على الصخر عند مدينة "روها" (Roha) في الشمال وأديرة "ديبرا بازين" (Debra Bizen) و "ديبرا دامو" (Debra Damo) و "ديبرا ليبيلوس" (Debra Libelous) في الشمال والوسط والجنوب بالتوالي .

وأتخذت أثيوبيا ولأول مرة في تاريخها عاصمة ثابتة على عهد الملك الأثيوبي فيسلاديس (Fasiladas) (1667 - 1932م) عند مدينة "غندار" (Gandar) ، لتعود مركزا حضاريا وعاصمة مستقرة بالبلاد بعد فترات ومراحل من التنقل والتجوال للبلاد والأكليروس الوطني معا من موقع إلى آخر تبعا لهيبة العرش وولاء وإخلاص الحكام بالأقاليم . والغالب أن الفترات من الأحتواء والإستيعاب للسكان المحليين بالداخل قد شملت القاطنين بالهضاب والمرتفعات التابعة لمقاطعات كل من "قوجام" (Gogjam) و "لاستا" (Lasta) و "أمهرا" (Amhara) وشوا (Shawa) تباعا ، إلى جانب رغبة البلاط الأثيوبي في الإبقاء والمحافظة على طرق ومسارات الحركة التجارية عبر السفوح ، مهيّدة على الساحل من البحر الأحمر وموانئ .

وما صاحب ذلك التوسع الإداري من إحتكاك بالمناطق الخاضعة لنفوذ المسلمين بالحبشة في الشرق والجنوب الشرقي ، مد أمله المنفعة التجارية ونزعة التنافس التجاري بين الطرفين . فالحبشة رغمًا عن العراقة الدينية منذ القرن الرابع الميلادي لم يعهد عنها النهوض بالنشر للمسيحية فيما وراء حدودها آنذاك والإقليمية - حاليا - إلى الخارج .

لقد تميزت العلاقات السياسية بين دولتي الجوار "سنار وأثيوبيا" بالمرونة والهدوء حينًا والشدة أحيانا أخرى وما طرأ على الروابط بينهما من التغيرات حتى الحربين الحبشية الأولى والثانية تباعا . قد كانت ناتجا طبيعيا للتقلبات السياسية للبلاد القائم ولمحاولات الهروب واللجوء السياسي المصاحبة لنزاعات التنافس حول العرش والسلطة في الدولتين . إلى جانب الرغبة

¹ أثيوبيا ، أسم مركب من مقطعين يونانيين (Atheim) وتعنى "محرق" و (OPS) بمعنى "وجه" ليصبح المعنى "أصحاب الوجوه المحرقة" أو " الوجوه الجبراء" وتشير مخطوط جنوب الجزيرة العربية إلى الشعب فيقال عنهم "الحبشات" وإلى البلاد بالقول "الحبشة" ويقصد بذلك النطاق المنتشر والممتد إلى الجنوب من مضيق البحر الأحمر . وقد تم تحريف أسمها الأفرنجي ليصير "أبسينيا" (Abyssina) . ولمقتضى الدراسة ، حاليا سوف يتم استخدام اللفظين (الحبشة) و (أثيوبيا) كمصطلحين مترادفين .

لديهما في التكاليف والأحتواء لمناطق ومراكز النفوذ والثروة والمنفعة التجارية على الحدود بين الطرفين .

إسلوب المهاداة كعربون للصدقة :-

لقد كانت اول إشارة للعلاقات السياسية بين الدولتين ، ما سبق و اورده الملك الأثيوبي " ت كلاهيمانوت الأول " (TEKLAHAYMANOT I) (1706 - 1708م) في خطاب أرسله إلى بلاط السلطان السنارى (بادي الثالث الأحمر) (1689 / 1692 - 1715م) والذي نوه من خلاله إلى أواصر الصداقة التي ربطت بين دولتيهما منذ عهد اسلافه " سرسا دنقل " (Sarsa Dengil) (1563-1597م) والسلطان " دكين " (1569-1578م) . وما تعاقب بعدهما من الملوك والسلاطين بالدولتين (1) حيث درج الأباطرة الأثيوبيين والسلاطين الفونج أبان تلك الفترة من التأخي بينهما ، على التبادل بالقيم والنفيس من الهدايا العيني منها والرمزي متلما كان يجرى إظهارا للود وحسن النوايا ، بين العاهلين السلطان " عبد القادر الثاني " (1599-1605م) والملك السليماني يسسنيوس (Susenyos) (1607-1632م) وبين هذا الأخير وكل من السلطان "بادي" المعروف (سيد القوم) (1612-1615م) وابنه وخليفته من بعده السلطان " رباط " (1615/1617-1643م) إلى جانب السلطان "بادي الثالث الأحمر" وما كانت تقوم بينه وبين الملك الأثيوبي " ياسو الثاني " (1730-1755م) من صلات وثيقة ، ظل البلاط السنارى يعبر عنها سنويا بلارسال للبالغ والخيول إلى العاصمة الحبشية بمدينة "غندار" Gondar ، كعربون لروابط الود أكثر منه إثابة أو جزية مفروضة ومقررة (2).

والغالب أن العلاقات السياسية خلال عامي 1699-1700م من عهد الملك الأثيوبي " ياسو الثاني " قد كانت محاطة بالتقدير المتبادل بين الجانبين . فقد اظهر كل من البلاط السنارى وحاكم دنقلا وشيخ بلده قرى اهتماما ورعاية متلازمين تجاه المبعوث الفرنسي بونسيت " Poncet " ومعاونيه الأب " بريفيدانت " Brevedant وهما في طريقهما عبر سنار الى هناك كطبيبين لعلاج الملك الأثيوبي ببلاد الحبشة، وذلك في تتابع دبلوماسي متميز تجاوز بالتقارب في العلاقات السياسية بين الطرفين ، السلطة المركزية إلى الحدود والزعامات القبلية على الأطراف والأنحاء النائية ، فقد ظل شيخ بلدة "اتبره" على حدود السلطنة بسنار ، يحتفظ ومنذ فترة مبكرة بروابط حميمة بزعيم مقاطعة "رأس الفيل" ويعمل على مهاداته سنويا بالجياد وكراب الصيد وحمير الوحش ، مقابل الحصول من رصيفه حاكم المقاطعة بالحبشة على البغال والقيم من الهدايا والإمارة . مما كان له وقعة في السيطرة على الجماعات المنتشرة من العربان على حدود البلدين (3) إن التبادل بالهدايا والسفارات وما ترتبت عليه من صلات وروابط قيمة، قد فسر بما لا يليق من الدعاوى والمبررات والتي أحدثت على المدى البعيد شرخا عميقا في علاقات الجانبين وتوترت ماسنا بسيادة وكرامة الدولة .

ظاهرة الانفصال واللجوء السياسي :-

لقد كانت - في الواقع - المناطق الحدودية الغربية من بلاد الحبشة المتاخمة "لإقليم الصعيد" من مملكة الفونج الإسلامية ، من أكثر المناطق ، لاعتبارات الموقع والوفرة في المنتجات والتداخل ، إثارة لاهتمام الملوك من الأحباش . فقد كانت المقصد للبلاط الأثيوبي منذ عهد الملك " يوستوس " (Youstos) (1711-1716م) في تجواله الممتد إلى ما وراء مقاطعة "رأس الفيل" والشروع في العمل على تقوية الحاميات العسكرية للأحباش على الحدود وهو أيضا ما

(1) J. Bruce , Travels To Discover The Source Of The Nile In The Years (1768-1773), 5 Vols,

(Edinburgh , 1805), Isted . , (1790), Vol.11 , PP. 526 -527,

(2) O.G.S. Crawford, The Fung Kingdom Of Sennar, (Gloucester, 1951) , P.180,

(3) Pankhurst , An Introduction To The Economic History Of Ethiopia From Early Time To 1800 , (London , 1961) , P.354,

كان يرمي إليه كل من الملك الأثيوبي "ياكافا" Bakaffa (1721-1730) وابنه وخليفته من بعده "ياسو الثاني" في التردد باتجاه المناطق التي على مقربة من العاصمة سنار وحول بلدة "شلقة" Chliga وولدي نهري "قندوة" gandawa "الدندر" و "شمفة" Shamfa "الرهد"¹. والراجح ان البلاط للحاكم بمدينة غندار قد تنبه مبكرا عن عام (1572م) إلى تبعات وخطورة الاضطرابات بالداخل وانعكاساتها على المناطق النائية والمعزولة من حدود المملكة المسيحية ، باتجاه سلطنة الفونج من الغرب . فقد دفعت الحروب الداخلية الملك الأثيوبي "سرسا دنقل" لاتخاذ لجملة من الترتيبات الإدارية والعسكرية ذات الطابع التوسعي في الأقاليم المجاورة ، التي كانت لها على المدى البعيد ، أسوأ النتائج اللاحقة على الروابط السياسية بين الدولتين . فالوشائج التي ربطت بين الملك سرسا دنقل وسلاطين الفونج ما كان لها ان تهتز ويعمق ، لولا موقف الآخرين المؤيد للثائر "اسحق" حاكم مقاطعة بحر نجاش Bahr-Nagash على الساحل من اريتريا وشمال تقرأ ، في صراعه ضد النصارى الأحمش ، والداعم مباشرة لحركة المد الإسلامي ، على عهد الإمام احمد بن إبراهيم جران وخلفائه من بعده² ، فقد تمكن الثائر الارتيري ، بفضل الفونج وتأييدهم والمساعدات العسكرية للأتراك العثمانيين على الساحل ، من التوسع باتجاه الجنوب من مدينة "اسمر" الحالية والظفر بتطويق الملك الأثيوبي "ميناس" Minias (1559-1563) وهزيمته والكسب بالتالي لزعامة المد الإسلامي ، في التصدي للنقوذ المسيحي والتواصل في مواجهته في المنطقة إلى حين الهزيمة ومصرعه في العام الميلادي (1580م)³.

وفي هذه المرحلة من الاضطرابات الداخلية لأثيوبيا يبرز الدور السياسي لمدينة سنار كمعقل جوهرى للأدعياء للعرش والفارين المناوئين للسلطة والنقوذ من الأثيوبيين في المملكة . فقد غدت سنار خلال ذلك الوقت ، المحصن للمنشق الأثيوبي "ساقا كرسطوس" SagaKrestos الابن الأصغر للملك "يعقوب" Yaikob (1597/1598 - 1603) بعد أن تقاوم الصراع بينه وبين الوريث المرتقب للعرش سسنيوس حول السلطة . حيث أفادت الروايات التقليدية للكنيسة الأثيوبية ، باحتضان البلاط السنارى للأمير المنشق تحت شرطي الإسلام والمصاهرة ، الأمر الذي حمل الأمير للرفض والاضطرار للهروب والمغادرة إلى مصر وعبرها إلى بيت المقدس واللجوء إلى كاتدرائية روما لينتهي به المطاف في عام (1634م) في مدينة "شاتودي ريفيل" Chatetu de Revel بباريس⁴ . لقد كان اعتلاء سسنيوس للعرش بالبلاد ويقانه بالسلطة حتى عام 1632م منعظا ومؤشرا خطيرا في تاريخ البلدين وعلاقاتهما السياسية حيث برزت أولى تلك المواقف في العام (1607م) عند بلدة "باد" Bad الواقعة إلى الجنوب من بحيرة تانا . والتي استقبل عندها الملك الأثيوبي رصيفه السنارى "عبد القادر الثاني بن اونسه" قادمًا من سنار طالبا ، لخلاف بينه وبين الأمراء بالبيت السنارى ، حق اللجوء السياسي بالحبشة⁵ . ولما كانت للملك الأثيوبي صلات في السابق بالهدايا والهبات مع السلطان عبد القادر الثاني والتي كما ذكر من بينها مجموعة من الجياد الأصيلة ونقارة ملكية – فقد فسر البلاط بسنار ذلك الصنيع بأنه يرمز إلي إهدار للكرامة وإلى نوع ما من التبعية للبلاط الأثيوبي الأمر الذي أدى تحت إصرار عجيب المانجلك وعدلان ولد ايه وابنه بادي سيد القوم وغيرهم من الوجهاء المتشددين ، إلى

¹E.A.W.Budge , A History of Ethiopia , Nubia And Abyssinia , (London 1920), Vol. 11 , PP.

437, 438,

²G.W.B. Huntingford , "Sarsa Dengil", Encyclopaedia Africana , Vol.10 (New York 1977), P.126

³Loc.Cit.,

⁴E.A.W. Budge, Op.Cit., Vol. 11, PP.375-761, 383- 850 .

⁵E. A, W. Budge, op. Cit., vol. 11, p. 850.

تتحي السلطان السناري من العرش وفقدانه للسلطة¹. وعلى كل فقد ترتبت على هروبه شرقا إلى الحبشة، عواقب وخيمة، بعد أن أقطعه الملك الأثيوبي كمقر له، بلدة شلقة الحدودية والإنعام عليه بشارات التبعية، من أغطية وأشرطة من الحرير وأسورة من الذهب.

وبالرغم من سيادة الدولة وقديستها عند الفونج، فإن التتحي عن السلطة لدواعي المهادنة لا يمكن النظر إليه كدافع قوى للبلاط بسنار، والأغلب أن الخلاف قد دار حول الأحباش ومحاولاتهم للسلطان عبد القادر لإقامة سلام بينه وبين المملكة المسيحية والموافقة ظاهريا بالسيادة والسلطان على بلاده، وغيرها من الدعاوى التي وجدت استكارا من سلاطين الفونج، رغما عن التداول بشأنها حتى السنوات المبكرة من القرن الثامن عشر الميلادي².

ومما أثار حفيظة البلاط السناري وضاعف من إدانته للأحباش، الاختيار لبلدة شلقة كموقع استراتيجي منتخب لإقامة السلطان وتابعة على بن عجيب، فقد نظر إليه السلطان "عدلان ولد ايه" باعتباره محاولة من جانب البلاط الأثيوبي للتحقيق لمطامعه السياسية والتجارية والاستغلال للموقع القريب من القلب للسلطنة الإسلامية والبلوغ لمركز السلطة والتهديد للاستقرار بالداخل. وجلبها من التبعات السياسية الهامة لدى الفونج التي أخذها ابن السلطان المعزول وخليفته بادي الأول سيد القوم، مأخذ الجد أبان فترة حكمه وسيادته للعرش. والذي جاء اعتلاءه للإمارة بسنار، إيذانا لبداية صفحة جديدة لعلاقات البلدين السياسية والتطلع المبكر للعمل على محو التداعيات المترتبة سلبا على آبية واللجوء عن بلاده والتوجه إلى الحبشة.

وعند التطرق في تفصيل إلى كنه وطبيعة الوشائج السياسية على عهد الغريمين السلطان السناري "بادي سيد القوم" ورصيفه الأثيوبي الملك سسنيوس وما نهض به من المحاولات لتبفادي ما قد يترتب على السلطان المنشق واحتضانه، من العواقب والتبعات المؤثرة، فإننا نلاحظ أن الأخير قد كان السباق كما جرت العادة، في التقرب إلى سنار والتودد بالقيم من الهدايا والهبات والتي كانت من جملتها ككر وثير وسوار من الذهب وغيرها من الرموز المعتادة العطاء والمنح من جانب السيد لفصل وتابعه ولما كان السلطان بادي على قدر وافر من الذكاء والدهاء والحكمة فقد فطن إلى مغزى هدايا الملك الأثيوبي وعطاياه ومن ثم عمل على ردها بالمقابل بالأسوأ منها بعدد من الخيول الهزيلة العرجاء مع الاحتجاج لديه عن الاستعداد لوالده السلطان ضد بلاده، ودعاه لقطع الطريق التجاري للقوافل غربا عبر بلدة "شلقة" بل ومهاجمة المناطق المنتشرة للعربان على طول امتداد حوض عطبرة والأطراف النائية الأخرى من السلطنة الإسلامية بسنار، مما يفرضي للكشف، بأن الحبشة قد ظهرت وقتها بمظهر الجار المعادي لسلطنة الفونج وللعلاقات القائمة أصلا بينهما على الود والتداخل والجوار³.

لقد كان ممكنا للملك الأثيوبي سسنيوس ومتاحا الكف عن التصعيد للعلاقات السياسية بسنار للأسوأ، والتقييد من ثم بالقرار القاضي بالإبعاد إلى حين للسلطان المعزول للخارج، وفي ذلك امتثالا لمشورة البلاط الأثيوبي ونصيحة بالالتفات إلى المشكلات السياسية دينيا واقتصاديا بالداخل. لو لا تمادي الملك وإصراره من جانب وتردده على صعيد آخر في الشروع بجذ في عمليات التطبيع لعلاقاته بالفونج، خاصة بعد أن تفاقت وشبت عن الطوق المخاطر المتداخلة لظاهرة اللجوء السياسي بين الجانبين، متجاوزة الأفراد إلى الجماعات والزعامات التقليدية،

¹ P.M.Holt And M.U.Dalt, The History Of The Sudan From The Coming Of Islam To The present day,

(London, 1979), p. 70, مخطوطة كاتب الشونة ص - 9، عبد الجليل، الشاطر بصيلي، معالم تاريخ

سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى التاسع عشر الميلادي، القاهرة 1955م، ص 78، شقير، نعم،

تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، 3 أجزاء، القاهرة 1903، ج 2، ص 74.

² O.Fahey And Spaulding, Kingdoms Of The Sudan (London, 1974), PP. 58,60,61, .

³ Dakhliya 3, 112/16/103, J.Bruce (1805), Vol - 111, P.312

واعتراف السلطان بادي على الإقدام على سياسات أكثر صرامة في مواجهه البلاط الأثيوبي وتسلمه ، قائمة على مبدأ المعاملة بالمثل وذلك من خلال الإيواء للجماعات الناقمة على السلطة من "الجياشين" (Chausen) الاحباش وإقطاعهم بلدة سيركي (Serke) الحدودية ودعمهم بالمؤن والعتاد للنهوض بغارات منتظمة ضد البلاط ونفوذه الممتد على مقاطعة "دامبيا" Dambaya وما جاورها من الأنحاء والمناطق¹ . وإنكاء لروح العداء والرد للصاع صاعين ، منح البلاط السناري ، المدعو " غالب" Galeb الحاكم الإقليمي المناوئ للملك بمقاطعة "مزجة" Mezega المسلمة ، حق اللجوء السياسي إلى السلطنة من دون الالتفات إلى استنكار الملك الأثيوبي والحاجة ، في المطالبة بالعودة والاسترداد لشارات السلطة الادارية للاحباش على الإقليم المسلم ، من رمح فضي وطبل ونقارة ملكية محلاة بالذهب وقوائم من العاج والفضة² . و للإمعان في الكيد للملك الأثيوبي وبلاطه والاستغلال للأوضاع السياسية المتدهورة بالحبشة ، أوعز السلطان السناري للحاكم الاقليمي بمنطقة قري لمهاجمة الأطراف المتاخمة من المملكة المسيحية ، كما أطلق العنان لنائبة ، على الحدود في الشرق " نانل ود عجيب" للقيام بمهمة عسكرية محدودة داخل مقاطعة دامبيا الغنية متجاهلا بذلك احتجاجات الملك الأثيوبي على انتهاكات نوابه³

وعند الاستقرار والتمحيص للفترة الممتدة لحكم الملك سسنيوس بالحبشة ، يبرز الآباء اليسوعيون "الجزويت" ، عاملا جوهريا بالتحول العقائدي للاحباش الارثوذكس نحو المذهب الكاثوليكي ، والافتعال لسلسلة من الاضطرابات الدامية التي حفلت بها فترة الحكم على عهده . فقد أصاب "بيرو بايز" Pero Paes وغيره من الآباء اليسوعيين الكاثوليك النجاش ، ليس فقط في الالتفاف عقائديا حول الملك والبلاط الأثيوبي بالحبشة والمساعدة لهما بالتالي على قهر المناوئين للعقيدة الكاثوليكية من النصاري الاحباش الارثوذكس بالداخل ، بل في الفوز أيضا في نفث الانتباه وجذب نحو الأطراف المتاخمة من سلطنة الفونج غربا لحدود مملكتهم المسيحية ، وإلى مدي الحاجة بالمنطقة هناك ، لفرض نوع من أشكال الرقابة عسكريا مع التركيز دوما للحاميات والقلاع لتوفير الأمن والاستقرار لللازمين⁴ . وتتبع الأهمية لتلك المناطق والأنحاء في الغرب من كونها قد تحولت خلال فترة حكم الملك الأثيوبي بالبلاد ، إلى مخابئ وأوكار للفارين سياسيا وعقائديا وجيوبا للمقاومة ، بدعم من حكام الأقاليم التابعين للفونج في الشرق ، لسلطة الحكم والعرش والبلاط الأثيوبي بالداخل .

وبالمقابل لقد رأى الملك سسنيوس وقد تنامت نبرة المواجهة سياسيا بينه وبين غريمه السلطان بادي ، أن يضع ما نوه إليه الآباء اليسوعيين وأشاروا من السياسات الأمنية المتعلقة بالفونج والحدود الشرقية من سلطنتهم ، موضع الاعتبار والتنفيذ ، حيث بدأ باستمالة نانلا ود عجيب ، تابع السلطان بادي وأقوى الزعامات القبلية الخاضعة لنفوذه في الشرق ، إلى حابنه بعد أن حباه بالمنح والهدايا واغدى عليه بالوافر من الأموال والذهب .

ولعل الملك الأثيوبي سسنيوس قد قصد بهذه المنحى من الاستقطاب السياسي ، أن يصيب البلاط السناري في مقتل والراجح انه قد أصاب النجاح في ذلك . فقد تعهد إليه نانلا ود عجيب بالمقابل أن يظل التابع لنفوذ البلاط الأثيوبي بالمنطقة ولتوجيهاته ، بل إن الروايات التقليدية للاحباش تذهب في هذا الصدد إلى الإشارة بأن الملك قد استخدمه للأسوأ ، من خلال الاستعداد والاندفاع لمهاجمة السكان المحليين وغيرهم من الرعايا الخاضعين لنفوذ سلطنة الفونج وإدارتهم

¹ F.M.E.,Pereira, (ed. and Trans), Chronica de Susenyos Rei de Ethiopia 2Vols , (Lisbon ,1892-1900) , Vol . J1 . PP.78-80, O.G.S. Crawford, Op. Cit ., P.181 and note 15

² O.G.S.Crawford , OP.Cit ,PP.180, 181and Note 13 , 183 .

³ H.A.MacMichael , A History Of The Arabs In The Sudan , 2Vols , (London , 1964), Vol.II.PP.436,254and note 11.

⁴ Loc.Cit ., , P. 436.

والمقيمين بالجهات والمناطق النائية على الأطراف بالمنطقة من حدود الجانبين، ومن ثم الإتيان على بلدة سيركي الاستراتيجية الهامة هناك في الغرب ، يقصد الإعاقة لانسياب حركة القوافل التجارية من وإلى قصبة السلطنة المسلمة عند مدينة سنار¹. مما يظهر الملك الأثيوبي بمظهر المنتقم من البلاط السناري وما انبرى إليه تجاه الحبشة ، من سياسات ترمي تباعا إلى زعزعة الأمن والاستقرار بعيدا على الأطراف والوسط ، بغية الإجهاد على العرش وسلطة الحكم بالحبشة. ففي الواقع ، لقد أحدث نائل بالانقلاب والتواطؤ من المؤثرات المتداخلة ، ما دفع بالجوء كظاهرة سياسية للإبتعاد عن دائرة الحوار والتسوية دبلوماسيا بين البلاطين والزج بعلاقاتهما لاحقا إلى حد العداوة المعلنة والمواجهة عسكريا وذلك في حرب غير فاصلة بينهما خلال العامين 1618-1619م الميلاديين .

وباعتلاء رباط بن بادي بن عبد القادر الثاني للعرش بسنار ، وفشل كافة المساعي المتلاحقة للبلاط والملك الأثيوبي سسنيوس في التودد والتقرب إليه بالسفارات والقيم من الهدايا، دخلت العلاقات السياسية بين الحبشة ودولة الفونج منعطفا خطيرا من التوتر غدت معه التجارة بعوائدها المربحة من الثروة ، بنذا جوهرها في دائرة الصراع والتنافس السياسي بين البلدين . فقد استهدف البلاط السناري بالإكراه "لفاطيما" (Fatima) بمملكة أروم والإجبار من ثم بالإيفاء : بالمستحققات التجارية من المملكة ، إلى الحكام باتبرة والتاكا "كسلا" المجاورين عوضا عن البلاط الأثيوبي ، التصنيق الاقتصادي والحرمان والتصعيد للأزمات الداخلية للأثيوبي . وقد كان أمر هذه الاتاوات محلا للخلاف والنزاع بين البلاطين السناري والحبشي إضافة إلى ما كان تتاله الملكة فاطيما وتتحصل عليه من المكوس الجمركية المفروضة على القوافل التجارية عبر سواكن الي البحر الأحمر والوارد بواسطة السكان المحليين ، من العروض التجارية لإقليمي اتبرة والتاكا المجاورين إلى الأسواق التجارية الرائجة للمملكة² . وبهذا الأجراء شبه الحاسم استطاعت السلطنة الحرمان وإلى حد ما للخزينة العامة بالحبشة من مورد مالي هام أكثر ما تكون حاجة إليه مضاعفة بذلك من حدة العداوة والتوتر الذي اندلع حربا بين الجانبين في العهود الأولى من القرن السابع عشر الميلادي والتي ترتبت عليها من النتائج والتبعات الهامة ما جعل الفونج والبلاط السناري الأكثر تحسبا للأحباش ولطموحاتهم في التوسع الإقليمي ناحية الغرب باتجاه الحدود الشرقية من السلطنة المسلمة ولقد أعقبت تلك المواجهة العسكرية الأولى في صيف (1618م) ، مرحلة من الهدوء والاعتدال ظلت السمة المميزة لطابع العلاقات السياسية للدولتين طوال فترة الأعوام الممتدة إلى النهايات من القرن الميلادي .

وفي غضون ذلك كانت العلاقات السياسية للفونج والحبشة قد شهدت انفراجا ملموسا على عهد الإمبراطور "فيسلاديس" Fasilidas ومعاصرة السلطان السناري بادي "أبو دقن" الذي تميز عهدهما بالاعتدال السياسي المتوازن فالملك الأثيوبي فيما يبدو قد كان مدركا لمدي مخاطر العداوة للفونج على المملكة المسيحية من السالف من الملوك الأحباش السابقين ولذا لجأ إلى طي صفحة العداوة بالعمل على تحسين علاقاته السياسية مع القوى المسلمة في الجوار وبخاصة الفونج لما لبلادهم من أهمية وخصوصية متميزة من الناحيتين الدينية والتجارية ، وتأتي أولاهما من الأهمية بمكان للشعب والدولة . فقد كان الأكثر إيلا للحبشة أن تقف سنار عقبة أمام البلاط الأثيوبي والحيولة دون الرغبة في الحصول على الزعامة الروحية للأحباش من كنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية بمصر أو التستر والتزام الصمت عن الطوائف المعادية عقانديا من الكاثوليك لبلوغ سنار والتغفل للحبشة وللإبقاء من جانبها على جسور التواصل بينهما مناسبة عمل الملك الأثيوبي على توثيق عرى الصداقة والود أيضا بالباشوات والحكام الأتراك أصحاب

¹F.M.E.Pereira ,OP.Cit.,Vol.11,pp.124-25,125,

²G.S.Crawford , Op.Cit .,PP.181,186 and Nots 27,32; H.A.MacMichael, Op.Cit .,Vol.1.P.119,

النفوذ القوي على الشاطئ بالبحر الأحمر وفي هذا الصدد تعزى الروايات الإخبارية المعاصرة للملك فيسلاديس ، جل النجاحات في التخلص والإبعاد للمناوئين للعقيدة الأرثوذكسية للدولة من الكاثوليك ، إلى باشوات سواكن ومصوع واليمن ونزولهم عند رغبة البلاط الأثيوبي بالإغلاق لطرق العبور برا وبحرا من وإلى الداخل من البلاد بالحبيشة².

وعلى نفس المنوال من التوازن والاتساق في العلاقات السياسية بين الدولتين هذا الملك يوحنا الأول "Yohannes I" (1665-1682م) حنو أبيه في توطيد الروابط بالفونج والجنوح إلى السلم وتبادل السفارات عبر بلديهما مع القوى الإسلامية بمصر ، بغية الإسترضاء والتودد للبلاط المسلم لكل من الدولتين للحيلولة دون توغل الطائفتين المذهبيتين ، الفرانيسكان والجزويت ، والتسرب عبر بلدة "شقة" الحدودية إلى بلادهم ، انطلاقا من المركز العام للتبشير عند نقطة "أخميم" بصعيد مصر¹.

والملاحظ أيضا أن العلاقات السياسية بين الجارتين قد اتسمت بالصدقة وتبادل المنفعة التجارية على عهد الملكين "بادي الثالث الأحمر" ومعاصرة الأثيوبي "ياسو الأكبر" (الأول) . ولم تعمل على التعكير لصفوها ، إلا بعضا من المواقف الفردية والمتباعدة التي لم ترق بتداعياتها إلى ما أحدثه مصرع السفير الفرنسي بسنار من التوتر . وقد كان ذلك مؤشرا لتعتيم صفو العلاقات بينهما رغما عن المساعي المبدولة لدى كل من الملك ياسو الأول والسلطان . لتوفير كافة الحماية للمسيو دي رول والترحيب الذي أبداه البلاط والتفهم لمضمون المراسلات المتبادلة بخصوصه ، بين القنصل الفرنسي بالقاهرة "دي ما ليت" والعاقل الأثيوبي . والتي كان الأخير قد اعتمدها في عام (1702) قبل مصرعه على يد ابنه "تكلاهيمانوت الأول" . وحلفائه من المتأمرين بالاكليروس الوطني².

لقد رأى الملك الأثيوبي الجديد تكلاهيمانوت الأول في مصرع المسيو دي رول على هذه الشاكلة من الغموض والتحدي ، استخفافا بشخصه ومسا للكرامة ولسيادة المملكة المسيحية . مما يوحى بمواقف من التوتر وقتها ، لا تبشر بسلام دائم ومتصل بين الفونج ودولة الجوار فقد أردف الملك الأثيوبي احتجاجاته لدى سنار بالتهديد بالحرب ، مع التلويح باستخدام مياه النيل كطرف في الصراع ضد مصر ، في حالة التمادي والابتزاز والتحريض لسنار للتحرش بالوافدين الأجانب من الأوربيين إلى بلاطه³.

وعلى كل فقد اختتمت تلك الصورة القائمة للروابط بين البلاطين ، بمصرع الإمبراطور تكلاهيمانوت الأول في ظروف سياسية غامضة ، غيبت العلاقات السياسية بين الفونج والأحباش وما اتصفت به خلال عهد الخلفاء الأباطرة من بعده "ثيوفلوس" Tewflos (1708-1711م) و "يوستوس" Yostos (1711-1716م) و "داويت الثالث" Dawit III (1716-1721م) و أخيرا "باكافا" Bakaffa "اسما جياورقس" Asma Giyorgis (1721-1730م) ممن تميزت فترات حكمهم بالهدوء والالتفات إلى حملات الصيد والقضاء على الاضطرابات السياسية الداخلية ، من دون الاشتغال بتطوير علاقاتهم بمن جاورهم من الأمم وقد استمر الوضع الداخلي للحبيشة على هذا النحو إلى أن تورط الملك ياسو الثاني والبلاط المسيحي في هجوم على عاصمة الفونج فيما عرف بالحرب الحبيشية الثانية والتي جاءت بتداعياتها المختلفة ، كأوسع اعتداء

² Meried and Sergew , " Sudan – Ethiopian Relations Before The Nineteenth Century " , Sudan In Africa , ed. By Y.F. Hassan , (Khartoum) 1971) , PP.66,

¹ I.Guidi,Annales Regis Iohannes 1665-16,82,(Paris,1903),P.161.

² Loc.Cit.:J.Bruc,Opcit.,(1790)Vol.11,P.526 .

³ J.Bruc,Opcit.,(1790)Vol.11,P.526 .

عسكري للأحباش يستهدف المنطقة هناك من السودان وادي النيل وذلك منذ عهد الملك الأثيوبي "عيزانا" (Ezana) في العقود المتأخرة من القرن الرابع الميلادي¹.

لقد كان عهد الملك الأثيوبي إياسو الثاني (1730-1755م) وسياساته العدائية تجاه الفونج ، منذرة بعمل عسكري ضد السلطنة المسلمة بسنار لما اعتاده من تجوال داخل حدود السلطنة وعدم التورع من الانطلاق إلى أقصى المناطق على امتداد حوض نهري "قندوة" و "شعفة". فضلا عن التحرش والنهب للرعاة من القبائل البدوية المستوطنة بالقرب من حوض نهر اثبرة والمناطق الأخرى الممتدة باتجاه سهول النيل الأزرق وروافده ، الواقعة تحت نفوذ زعامتي مناطق اثبرة "و راس الفيل" (القلابات) والتي خضعت بدورها لقبيلة الضباينة ، كأقوى الزعامات الرعوية من البدو غلبة وشدة هناك ، بين نهري "ستيت" Setit و "باسلام" وما حولهما إلى الأقصى من سفوح البطانة وسهول أودية "تومات" وغيرها من مناطق بلديتي "الجبرة" و "نوكة" عند الأطراف المنبسطة لنهر ستيت .

ولما كانت لقبيلة الضباينة ارتباط شبة تقليدي بالرقيق وتجارتها في الأنحاء الداخلية من البلاد بالحبشة ، فقد أخرجوا بلاغاران المتكررة للقتل والاصطياد للرقيق ، موقف البلاط السناري تجاه الأحباش سياسيا ، مع الاضعاف للمواثيق والترابط التجاري القائم بين الكيانين . بينما استقرت عشائر قبيلة "الحمرة" على المناطق الحدودية من سلطنة سنار ، قبالة الحبشة وعند التخوم التابعة لمشيختي "دنكر" Danker و "دباركي" Dabārkey الممتدتين على نهر الدندر حيث بسطت مع الاحتفاظ تقليديا بالولاء لقبيلة الضباينة ، نفوذا فعليا نافذا ومؤثرا على معظم القبائل الرعوية من البدو المنتشرة على ربوع وامتداد المشيختين².

لقد اقتضت التحركات الموسمية لتلك القبائل الرعوية في الاتجاهين الشرقي والشمالي الغربي ، اتخاذ لبعض من التحركات العسكرية التي تحولت بموجبها بلدة "كير" Keira على الحدود إلى نقطة عسكرية ، لإظهار هيبة البلاط المسيحي بالمنطقة في الدفاع عن الموالين لسياساته والتصدي لعرب سنار ولاعتداءاتهم المتكررة لجباية المكوس والاتاوات ، للاكتفاء ذاتيا ولسد حاجة الملك الأثيوبي والخزينة العامة بمدينة غندار³.

فقد ترتبت على الحروب والنزاعات الداخلية بالبلاد . جملة من الصعوبات والتي كان أهمها أولوية ، فقدان البلاط الأثيوبي لما ظل يحظى ويتمتع به من النفوذ التقليدي بمقاطعات الوفرة من المنتجات المحلية، عند مناطق "فوجام" Gojjam و "دامبيا" Dambya و "قارا" (Wogara) و "ولقا" (Wollga) في الغرب والوسط والجنوب الغربي من البلاد، مع الإنذفاع عوضا عن ذلك، لأخذ منهج التوسع الإقليمي باتجاه المناطق الكثيفة السكان، قبالة الأنحاء المتداخلة مع سلطنة الفونج حيث تستقر جماعات المزارعين من "الكوشيين" و "الشنكالا" (الزنوج) و "الأغوا" Agawa والهمج الرعويين وغيرهم فضلا عن الوفرة من منتجات الثروة والرشاء في سلعتي الذهب والرقيق والقدر الكافي من المكوس والاتاوات المقررة. علاوة على تمتع المنطقة أحزمة وأطرافا بموقع إستراتيجي ظل مدعاة للتنافس الدائم بين السلطة القائمة على البلدين.

وحول تلك المرحلة الهامة من تاريخ العلاقات السياسية بين الفونج والأحباش، يعتبر موت الملك الأثيوبي "إياسو الثاني" ، أولى الإرهاصات لدخول المملكة المسيحية فيما عرف

¹ O.G.S.Crawford, Op.Cit., P.239; R.Pankhurst, "Notes For The History Of Gondar.", PP.180,191, .

² كحالة ، عمر رضا ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، (دار العلم للملايين ببيروت 1968م) ج 3

ص 166 ، شقير ، نعم ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 58 ،

³ R.Pankhurst, An Introduction to The Economic History of Ethiopia., P.117; Merid and Sergew, OP.Cit., PP.64-65,

تاريخيا ومحليا هناك باسم "زامانا مسافينت" Zmana Masafent "عصر الأمراء" والذي ظل على اتصال بالفوضى والعنف السياسي والاضطرابات الداخلية حتى نهايات العمام (1855م) وما يهنا خلال تلك السنوات المنصرمة حديثا من تاريخ اثيوبيا يظهر الملك "ايواس" Iyo,as (1755-1769م) كأقوى الحكام بالحبشة وقتها والذي مثلت فترة ولايته للعرش خلفا للملك ايسو الثاني مرحلة هامة لانحسار العداء التقليدي باتجاه الفونج، وما طرأ من تصعيد في المواقف السياسية بينهما، بمرده الى السلطان المناري "بادي أبوشلوخ" وهروبه الى بلاد الحبشة بصورة أعادت للأذهان فرار السلطان السابق "عبد القادر الثاني" وطلبه لحق اللجوء السياسي هنالك في العام (1607م)¹. وقد جاء قرار السلطان بادي الرابع، على أثر الخلافات السياسية التي دارت بينه وبين الزعامة الغالبة على السلطة بقيادة الشيخ أبو الكليك بسنار، في مؤازرة قوية وفاعلة من جانب الأمير ناصر بن السلطان بادي أبو شلوخ²، وفي هذا الصدد، تشير الروايات التقليدية للأحباش وفي عجلة، الى الملك الأثيوبي "ايواس" وقراره بالإقطاع لبلدة "رأس الفيل" (القلابات) للسلطان المناري، بحكام اقليمى، بنظير الولاء والإذعان للبلاط المسيحي وذلك بعد أن حمد اليه مقدمة مع الوعد بالتوفير كافة الاحتياجات المرغوبة للتصدي للمتأمرين عليه بسنار من البلاط وأعوانهم من الهمج في الوقت كانت فيه الأوضاع الداخلية بالحبشة في تدهور تدريجي، بفعل المكائد والتنافس. وباتت تنذر بقرب وقوع الاصطدام بين النبلاء والقلا، التيارين المتربصين لبعضهما بمدينة غندار، والمنتازعين على العرش والسلطة بالداخل.

ولعل في التطلع للرأس "ميكانيل" Ras Mikael كأقوى النبلاء الطموحين من "التقري" بمدينة غندار، والتقرب اليه من جانب السلطان المناري للمساعدة عسكريا لاستعادة عرشه لسنار، وما يكشف عن مكانة الرأس الأثيوبي والموقف السياسي للنبلاء من التقري بغندار، وما لهم من نفوذ فاعل هناك. والراجح ان السلطان بادي الرابع لم يشأ البقاء حاكما لمنطقة رأس الفيل، بل انزعاج بشأن العرش والبلاط بالسلطنة، مما دفعة لعدم الأخذ بنصيحة القائد "ولدى لول" Welled Leoul بالبقاء بمنطقة رأس الفيل، ريثما يحسم الصراع الداخلي، على السلطة والعرش بالمملكة المسيحية او تنهيا الظروف المؤاتية بسنار للاسترداد العرش. الأمر الذي أوقع السلطان المخلوع فريسة للتآمر والغدر من بعض السناريين والمتأمرين بينما وجدت فكرة المساعدة المباشرة عسكريا للاسترداد العرش، معارضة الملك الأثيوبي "ايواس" و "ولدى لول" و "الاشيقي" Ichege (كبير الرهبان بالحبشة) وغيرهم من كبار المستشارين، والذين لم يتناسوا ما أصاب بلادهم من الخسران على عهد بادي أبوشلوخ داخليا وخارجيا. وكلها ذكريات أفضلت للرأس ميكانيل خططه ومساعدته في المناصرة للسلطان ولمهاجمة سنار للاسترداد العرش³. لقد اجتمعت الروايات المختلفة، على السلطان بادي أبو شلوخ ومصرعه بالمنطقة المنبسطة بين القضايف والرهذ. على أثر نجاح المتأمرين السناريين في استدراجه الى قرية "تيوة" ليلقى مصرعه هناك غدرا وغيلة على يد صاحبيها الشيخ ودحسان.

وكما كان متوقعا، فقد أحدث مصرع السلطان بادي أبوشلوخ على هذا النمط التآمرى من التبعات، ما ضاعف من حدة التوتر القائم أصلا بين البلاطين، عملت على تداركه لاحقا، السفارات والهدايا المتبادلة بينهما والتماسا كان قد تقدم به الملك الأثيوبي تي كلا هيما توت الثاني

¹ M. Abir, Ethiopia and The Red Sea, (London, 1980), PP.161,200,203

² مخطوطة كاتب الشؤون من ص 20-21-22-23-26 عهد الجليل، الشاطر بصلي، المصدر السابق، ص

ص 77-78-79، شغير، نعم، المصدر السابق، ج2، ص 82.

³ E. A. W. Budge, Op. Cit, Vol. PP. 425, 426 ; Misc. 1/32/661

(1769-1777م) يلتبس من خلاله رعاية البلاط السناري لرحلة العودة عبر أراضيهِ لبعثة الرحالة الأوربي "جيمس بروس"، معرباً عن أمله في الركون إلى الصداقة بدلا عن العداء، كسمة مميزة للعلاقات السياسية بين بلديهما¹.

وما كان يحدث من غارات ومناوشات على الأطراف والحدود الجغرافية الفاصلة بين المملكتين كان الهدف منها، الترويع والزعزعة للاستقرار هناك ولم ترق - في الواقع - إلى حد الوصف بالتوسع الإقليمي للأحباش ، على حساب السلطنة المسلمة. فقد كانت المملكة المسيحية خلال فترة تسلط "الرؤوس" Rases (الأمراء)، تعيش حالة من التفكك والفوضى ، شأن السلطة بسنار في سنواتها المتأخرة على عهد الهمج وتحكمهم في عنجهية على الأحوال العامة بالدولة. وبالنظر إلى تلك الاغارات العدوانية للأحباش ، فقد رمت منذ أن أُسْتُهْدِفَ حكام الأقاليم الأطراف النائية من السلطنة، إلى أعمال التخريب في مواطن العرب والقبائل الوثنية حول بلده كيرا والقبائل الأخرى حول منطقتي اتبرة وفازو غلي، إلى جانب الابتزاز للجماعات من التكرور عند منطقة "أبي رملة" مع الإقامة لنفوذ عسكري وشبه دائم في الشمال والشمال الغربي عند بلدة المئمة².

لا ريب أن هزيمة السلطان "عدلان الثاني بن اسماعيل" (1203هـ/1788-1789م) كأخر السلاطين الفونج الأقوياء ، ومقتله على يد الزعماء الهمج، قد أدى، حسبما أورد صاحب مخطوطة الشونه، أن صار ملكهم عادة، وصار التاريخ والملك باسم الهمج واندثر أثرهم³. وبذا دخلت المملكة المسلمة للفونج في سلسلة من التآمر والاضطرابات، التي ظلت متصلة الحلقات حتى مطلع العام (1821م) والخبديوي محمد علي باشا على أعتاب الغزو الأجزاء الشمالية من السلطنة.

ولعل الحبشة قد استثمرت ما آلت إليه الأمارة من احتراب وخصومات ، في إيجاد موطئ قدم لها في الأنحاء الشرقية المتاخمة لحدودها غربا . فقد المحت المصادر⁴ إلى امتداد النفوذ السياسي للأحباش إلى حد منطقة "العطش"، إلى الشرق من القصارف الحالية ، وإقليم فازو غلي على النيل الأزرق ، فضلا عن رأس الفيل "القلابات" عند منطقة شلقة، كحمر هام لحركتي الصادر والوارد والأمر الذي يظهر - رغما عن صمت المصادر الوطنية في تأكيد هذا الامتداد الإقليمي للثيوبيين من عدمه ، حدة في التوتر وانعداماً للاستقرار والسلام في السنوات المتأخرة من عمر السلطنة المسلمة، بين الدولتين الجارتين. علاوة عن مدى الفوضى السياسية التي اعتملت البلاد بفعل الهمج وصراعاتهم الدمية من دون الالتفات إلى قدسية الدولة عند السلاطين الأوائل من الفونج والمحافظة على مؤسساتها وكيانها السياسي مستقلاً.

النيل في محور التاريخ والسياسة :

لما كان نهر النيل برافديه الأبيض والأزرق ، دعامة وركيزة هامة لحياة أهل السودان الاقتصادية ، فقد كانت كيفية الاستخدام لمياهه وبخاصة الرافد الأخير ، باعثاً للنزاع مع الجارة اثيوبيا . وكان نهر النيل يستقبل جل ما احتواه من روافده ، النيل الأزرق وعطبرة والسوبات ، أما المتبقى فمن البحيرات الاستوائية . وقد اثبتت الخرائط الأوربية للقرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين والمأخوذة من أعمال "بطليموس" (بطلومي) Ptolemy الجغرافية، أن النيل

¹J. Bruce, Op. Cit . (1790), Vol.11, P.440

²A. Robinson. "The Tekuri Sheikhs. Of Gollabat" Journal of African Society Vol. 26(1926-1927), P.47.

³ المخطوطة السابقة ، ص ص 35-36

⁴M.Abir, "The Origins of The Ethiopian - Egyptian Border Problem in The Nineteenth Century", Journal of African History, Vol. 111, No.3(1967), PP. 443-61.

الازرق قد أخذ منعطفاً دائرياً ضيقاً من مينة في المرتفعات الاثيوبية حتى لمقاه بالنيل الابيض¹. ويلتقي في انسيابه عند منطقة عطبرة بنهر "تكازي" Takka (عطبرة)، كرافد رينسي، بينما يصب نهر "ماريب" Mareb (القاش) الذي ينبع من الجهات الغربية من اسمرا والمطة على التاكا. الى جانب كل من نهر "انسبا" Anseba وروافده بركة والذي يصب عند دلتا طوكر². ويستشف من جملة المعلومات الجغرافية المتواترة عن مانية الهضبة باثيوبيا وما يتعلق بها من أنظمة للري والانسياح ما يفيد، بتركزها على الدوام داخل وحول عدد من المسطحات المائية الضخمة من الانهار الرئيسية والروافد والبحيرات، تأتي مقدمتها اهمية مجموعة الروافد التابعة لكل من نهر "الواش" Awash و"أومو" Omo و"جوبا" Joba و"أبشيبي" Webi Shebili والمنحدرة من مرتفعات هضبة "أروسي" Arrusi إضافة للمياه التابعة لنهر "تكازي" ونهر "الاباي" Abbay (النيل الازرق)، حيث تلعب بحيرة تانا بمتدادها الحدودي وتقلها المائي دوراً أساسياً وجوهرياً في مانية المنطقة وانسيابها باثيوبيا. وتصل هذه الكتلة الحبشية الممتدة من الداخل عن الساحل من الناحية الشرقي، السهل المعروف في المنطقة باسم "سمهر" Samaher حيث يشكل بامتداده المترامي الأطراف باتجاه الميناء البحري لمدينة مصوع شمالاً، سداً طبيعياً للهضبة الاثيوبية وحاجزاً قوياً للحيلولة بينها وبين البحر الأحمر باتجاه الشرق. وعلى نفس الاتجاه يسير الامتداد الشمالي لهضبة هرر والمحاذي لكل من ساحل خليج عدن والمناطق المنبسطة من رأس "قور دفوي"³ Guardafui. وقد ظل النيل يمثل الغموض والأساطير في الادبيات الأفريقية القديمة الى جانب دوره الاساسي كمصدر هام للرزق، إذ كل من الروايات المقدسة والأساطير والرسومات الاثيوبية، تذهب الى القول، بأن الأباطرة والملوك السابقين للأحباش قد نجحوا في اعتراض المجرى الطبيعي للنيل أو إيقافه عن التدفق باتجاه الديار المصرية. فالامتلاك للقدرة للتحقيق لتلك الاعتراضات، كان الاعتقاد بين الأوساط من الحكام المسلمين والمسيحيين والأوربيين على حد سواء خلال الفترة من القرن الحادي عشر الى السابع عشر وقد ظل كذلك متداولاً حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي⁴.

فاذا صحت الروايات التقليدية للأثيوبيين فيما ذهبت إليه وادعت بشأن النيل، ففي ذلك استغلال لموقع المنابع المائية ومحاولات مبكرة للزج بالمياه في اتون الصراعات والمشاحنات السياسية بالمنطقة من حوض النيل والحرمان بالتالي لمصر ولما جاورها من البلدان، من حق الانتفاع بالمياه، لارتباط جدوى التهديد وفاعليته بالإيقاف للمياه عن كل الأطراف المنفعة من مياه النيل.

فعندما انحسر النيل في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر الميلادي، وادى الى ما صار يعرف تاريخياً "بالسدة العظمى" ماكان من حاكم مصر الفاطمي "المستنصر بالله" (420هـ/1029م) للاعتقاد بان ذلك قد حدث نتيجة لما اقدمت عليه اثيوبيا، الا ان طلب ملتصا من بطريك القبط بالاسكندرية التوسط لدى البلاط المسيحي لاعادة النيل لمجراه والى وضعه

¹ O. Marina, "Ethiopian – Sudanese Relations and The Conflict In The Horn of Africa " Cairo Conference, (1985), Vol. 1, PP. 223-50, 215; M.A. Abdin Salih, "The Nile Inside The Sudan" In The Nile Valley Countries Continuity and Changes, Vol. 1, PP. 62-71, 62

² M. Ali, Omer, "Conflict and Co- Operation In The Nile Basin," , The Nile Valley Countries Continuity and Changes, Vol. 11, PP. 1-17,2

³ H. Atkins, A geography of Ethiopia, (Addis Ababa, 1970), PP. 10, 20-21, 21

⁴ E.D. Hecht, "Ethiopia Threatens To Block The Nile", Azania, Vol. XXIII (1988), PP. 1-10, 1ff

الطبيعي¹. الأمر الذي يستشف منه تهديدا بالاستخدام للمياه كسلاح سابقا في أوانه لعهد الأباطرة الأحباش "الزاغويين" Zagwe Dynasty (1137-1270م تقريبا) واعتداءاتهم المتكررة على مصر. فالملك الزاغوي "لاليبالا" Lalibela (1160-1211م) لم يمكن يرمي من وراء الحفريات الهندسية على المجرى، التحويل لمجرى مياه النيل الأزرق، بقدر ما كان يسعى لاعتراض الروافد المائية التابع له والناشئة عن غزارة الأمطار خلال أشهر يوليو إلى سبتمبر، وما تحمله من كميات مقدرة من الطمي شمالا إلى مصر، مما قد يتسبب في فترات من القحط والجفاف الأراضي. والراجح أن الإحجام عن التنفيذ لذلك المشروع، ربما قد كان بسبب الموت المفاجئ للملك أو لاقتناعه بنصيحة الأكليروس والوطني بالداخل، من أن ذلك الصنيع الهندسي سيؤدي إلى تقوية مركز ونفوذ السلطنات الإسلامية بالشرق من مملكته، والتعمير لأراضي مشيخات "هادية" Hadya و"عدل" Adal الإسلاميتين، ويجعلهما من حيث السطوة والقوة في توازن لمملكته. وإن كان هناك اعتقاد بالتنفيذ لذلك المشروع بالنسبة لمجرى تكازي وليس النيل الأزرق، للاستحالة مع السرعة في التيار وفي الانسياب والتدفق².

وفي الواقع، لقد ارتبطت مسألة المياه بين اثيوبيا ومصر في أغلب المراحل التاريخية، بالدين والعقيدة والأقليات الدينية وكيفية معاملتها، فبعد خطاب الملك السليمانتي "يكنو أملاك" Yekuno Amlak بهذا الشأن والخصوص، للسلطان المملوكي "بيبرس"، يعد "عمدا صيون الأول" Amada Sayon I (1314-1344م). - حسب الرواية العربية- أول ملك اثيوبي، ينوه في مراسلاته للعام 1225م للسلطات الإسلامية بمصر صراحة، بالتهديد بالانقياد أو التحويل لمجرى النيل والاعتراض على حركة التجارة من وإلى القرن الأفريقي، في حالة عدم التسامح والإحسان في المعاملة، تجاه القبط ومن هم دونهم من الجماعات المسيحية بالبلاد. تاركاً للملك الأثيوبي التالي "سيفا ارعد" Safa Arad (1344-1373م) بإيعاز من الفرنك الأوربيين، القيام ببعض التحركات العدائية والعسكرية. وإن كان التحويل للنيل عن مجراه الطبيعي، قد ظل هدفاً استراتيجياً يراد ابنه وخليفته من بعده الملك الأثيوبي "داويت الأول" Dawit I (1380-1412م) في الصراع السياسي الدائر بينه وبين السلطات الحاكمة بمصر. والذي تعزیه البعض من المصادر الأثيوبية حديثاً، إلى المسلمين ونفوذهم الممتد بكل من مصر وسوريا وARMENIA وإستانبول، والتي نزع الاضطهاد الديني لغيرهم من الملل والطوائف المحلية المقيمين هناك³. وإن كانت الحولية المعاصرة للملك الأثيوبي "زراء يعقوب" Zara Yagob قد تناولت من غير تفصيل، سوء معاملة المسلمين بمصر للأقباط المسيحيين وتهديد الملك الأثيوبي للسلطات المسلمة في حالة التمادي، بتغيير القناة الطبيعية لمجرى النيل، فإن الرواية الإخبارية المعاصرة للملك الأثيوبي التالي "لينا دنغل" Lebna Dengil (1508-1540) تذهب بعيداً في مسألة النيل والاستخدام لمياهه كسلاح عند الأحباش، حيث تشير متتالية جهود الملك في الإقامة لسد منيع على المجرى الرئيسي للنيل، ومحولاً مياهه صوب الشرق مما الحق الأضرار بمصر أرضاً وسكاناً. الأمر الذي اضطر معه السلطان "سليم الأول" حاكم القسطنطينية، للترافع عن إكمال الزحف للحبشة والاكتفاء بمراسلة الملك الأثيوبي لبنا دنغل،

¹ العمري، ابن فضل الله ممالك الإمبراطور في ممالك الانصار، مخطوط مصور على الميكرو فيلم بمعهد الدراسات الأثيوبية الجزآن الثاني والثالث، ج2 ص20. حاشية 1، المقريري، تقى الدين أحمد على، اغائة

26- الأمانة في كشف الغمة، تحقيق بدر الدين السباعي، دمشق، 1956م، ص ص 23

² J. Bruce Op.cit, (1970), Vol. I, PP. 529-31

³ T. Tamrat, Church and State In Ethiopia 1270-1527, (London, 1972), PP. 255 Note 2, 256 and note 3; E.D. Hecht, Op. Cit., P. 8

للاستئناف للتدفق لمياه النيل وذلك بعد المهاداة بما يرضي من الهدايا القيمة والتي كان من بينها،
قطعا من خشب الصليب الحقيقي¹.

لقد كان للتهديدات بأمياه انطباعا خاص للسياسة العدائية لاوروبا والغرب الأوربي تجاه
الإسلام والمسلمين في الشرق. فقد بادرت الصليبية العالمية في أعقاب اعتلاء الملك الأثيوبي
"اسحق"Yasage(1413-1430م) للعرش، بالعرض عليه لتكوين حلف صليبي بينهما،
للتصدي للمسلمين ونفوذهم القوي الممتد شرقا. فالغرب الأوربي قد بات موقفا بالنيل
واستراتيجيته، كسلاح فاعل تجاه الإسلام والمسلمين في المنطقة من حوض النيل ذلك، منذ
لحظة استسلام الملوك البرتغال والفرنسيين لشانعات الكاثوليك والرهبان الأحباش، المتدولة
باوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي حول المقدرة الفائقة لبلاد الحبشة في التحكم في المياه
وتدفق النيل وجريانه شمالا، والاضرار بمصر الإسلامية اقتصاديا وسياسيا. ولذا بادرت أوروبا،
تحت نظرة الإعجاب بالانتصارات التي تحققت للأباطرة الأحباش على القوى الإسلامية داخلها،
للتفكير والإبرام للعهود لتنفيذ السياسة المرتقبة للمسيحية العالمية في التقارب صليبي، ولذا فقد
راسله لذلك الغرض من الملوك الأوربيين، كل من "شارلس السابع" Charles VII ملك فرنسا
و"الفونسو ملك ارجون" Alfonso King of Aragon "وملك نابولي"، مع الإيعاز بالتقديم لكافة
المساعدات العسكرية والتقنية للتحويل لمجرى النيل بعيدا عن مصر².

وعندما راققت الفكرة في التحويل والاعتراض للمياه، لحاكم الهند البرتغالي، لجأ
متطوعا للتذليل لكافة المعضلات التقنية بل والاقتراح لتحويل مجرى النيل الأزرق للإبحراق
شرقا في شكل شبه دائري للانحدار بعيدا بذلك صوب المصطحات المائية للبحر الأحمر. كما
جرى التفاوض بين البلاط بأثيوبيا والملك البرتغالي "مانويل الأول" Manoel، للإمداد بالخبرة
الأوربية من العمال المهرة والحرفيين وغيرهم، للاستعانة بهم لشق القنوات والإقامة للسدود
والمحابس على المجرى الرئيسي للنيل الأزرق الرئيسي وروافده. والراجح ان الملك البرتغالي
والتعلل بالأوضاع الداخلية لبلاده الصراع الديني بين الفرانسييسكان واليسوعيين وحث الطائفة
الأخيرة للملوك الأثيوبيين لتطويع القوى المائية الطبيعية المتوفرة لبلادهم الكبح نمصر والبلدان
الإسلامية المجاورة. الى جانب ما يلزم للتنفيذ من التكاليف الباهظة، فضلا عن حروب الإمام
"أحمد ابن ابراهيم جران" وتورط القوى العظمى وغزو القبائل القالاية (Gallas)، ما ضاعف من
الإستحالة للتحقيق والتنفيذ للمشروعات الصليبية بالمنطقة من حوض النيل. ولذا صممت الدوائر
السياسية للغرب الأوربي، عن تلك المشروعات الى نهاية العام (1706م)³.

لقد كان الفوننج أكثر تخوفا من بعثة "دي رول" وما اشيع حولها من محاولات
للاستهداف للنيل والتحويل لمياهه، وقد كانت لتلك المخاوف ما يبررها، نظرا لما سيلحق بالبلاد
والأراضي الزراعية الممتدة بطول ضفتي النيل من الأضرار وبخاصة النطاق الممتد من حدود
سنار شمالا الى نقطة التقاء النيل باتجاه مصر، والأراضي المطرية والزراعية المتمركزة في
الوسط، وبمحاذاة التاكا (كسلا) شرقا الى كردفان، لتمييزها بالوفرة في الحاصلات الزراعية وسيادة
الأراضي المروية الصالحة للزراعة ومراكز الأنشطة البشرية من زراعة ورعي، مع سهولة
الإمداد بالمياه وتصاريق الري المنتظم، وكثرة الجروف الخصبة المجاورة للشاطئ والجزر

¹E. D. Hecht , Op.cit., pp. 5, 8, 9,

² عاشور، سعيد عبدالفتاح، مصر في العصور الوسطى، (القاهرة، 1970) ص ص 204 - 283، شرحه،
الحركة الصليبية، صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور، جزاء، (القاهرة، 1971)، ج 1
ص ص 240، 1152، ج 2 ص ص 1183 - 1184.

³R. Pankhurst , Op. Cit, pp . 270, 270-71, 271; E. D. Hecht, Opcit., pp 9-10, 10,

المغمورة في مواسم الفيضان علاوة على قيامها مناطقًا للاكتظاظ السكاني والمورد الأساسي لخزينة الدولة¹. مما يوضح مدى الكوارث والصعوبات الاقتصادية والطبيعية التي ستصيب السلطنة ونظامها الاجتماعي والاقتصادي المرتبط بالزراعة، في حالة الانحسار للمياه تحت دواعي السياسة أو العمل التخريبي. لذلك فقد كان شعور البلاط السناري بالقلق والمخاوف مبعثة، للشائعات التي أطلقها الفراتمسكان ضد خصومهم اليسوعيين، ومحاولاتهم المزعومة للمساعدة الحبشة للتحويل لمجري النيل الأزرق ومياهه، والتي مما زادها قبولاً بين أوساطهم، ما تزامن وقتها، من التدنى والانحسار لمياه النيل ومناسيبه².

ولما كان تكلاهيمنوت الأول - على الجانب الأثيوبي، يعتقد مثل أسلافه من الملوك، في إمكانية الاستخدام للنيل كسلاح ضد خصومه، فإنه قد سطر بذلك المضمون احتجاجاً للباشا بالقاهرة على أثر ارتيابه لضلوع الباشا في عملية اغتيال المبعوث السامي لفرنسا. مهدداً بالمقدرة على إلحاق الكوارث بمصر وإلى خطورة الامتلاك لبلاده لقدرة التحكم في انسياب النيل ما دامت، منابعه وجل مياهه تحت تصرف وإرادة المملكة المسيحية، والتي في استطاعتها الميل به منحاً آخر مسببه "الاضرار لبلادك". ولعل الملك الأثيوبي قد قصد بذلك التهديد للباشا، التنبيه المباشر للسلطات الحاكمة بسلطنة سنار، إلى تلك الحقيقة الدامغة في نظره.

وبالنظر إلى الاستحالة للإقدام خلال تلك الفترة عتيها، على مثل هذه الخطوة الهندسية المعقدة على صفحة المجري الطبيعي للنيل، فإن سياسة التلميح بالمياه كسلاح قد هدفت فيما يبدو، للإثارة للفرع والزرعة للأوضاع الأمنية في المنطقة من حوض النيل، مثلما كان يفعل الملوك الأثيوبيين سابقاً، بقصد التحقيق لمأرب سياسية معينة، ناهيك عن عهد تكلاهيمنوت الأول، والذي كما سبق وأشير، كان يموج بالقلق والفتن والاضطرابات³. وربما الأمر برمته فيما يتصل بالنيل والزج بالمياه في المعترك السياسي في أثيوبيا، لم يعدو بأكثر من التلويح الدعاية السياسية كسلاح فاعل للحبشة. تبعاً للموقع الاستراتيجي والمتحكم على أكبر مساحة ممكنة من المساقط المائية، والفائق الخطورة مستقبلاً، في الترويع لدول المنطقة من حوض النيل اقتصادياً. مما يفترض بأن زيارة الرحالة الاسكتلندي "جيمس بروس" J. Bruce إلى أثيوبيا في الأوائل من القرن التاسع الميلادي، للاستكشاف والوقوف الميداني على النيل الأزرق منابعا وروافد وأهمية عظمى للمنطقة من حوض النيل ودولة، قد تمت بمباركة من الصليبية العالمية وتحت مؤثرات الدعاية والترويع السياسي لأثيوبيا. علماً بأن مسألة المعالجة لمياه النيل، قد ظلت وعلى الدوام جزءاً من السياسات الاستراتيجية للاحق من الأباطرة بأثيوبيا، حتى السنوات المتأخرة من عمر المملكة المسيحية⁴.

¹ J. Spaulding The Heroic Age in Sinar, (African Studies Center Michigan state University, 1985), pp. 91-92, 93, 96,9.

² مسعد، مصطفى محمد، "بعض ملاحظات جديدة في تاريخ مملكة الفونج الإسلامية، (مجلة جامعة القاهرة، الخرطوم، العدد الثالث لسنة 1972م)، ص 71.

³ J. Bruce, op. Cit, Isted., Vol II, PP. 526-27; Vol. II, P. 715.

⁴ ظلت فكرة مياه النيل والتحكم في منابعه تراود ملوك أثيوبيا حتى القرن العشرين، خصوصاً "منليك الثاني" Menilek II (1889-1930م) والامبراطور "هيلاسلاسي الأول" Haile Sellasie (1930-1974م)، بقصد التطوير الاقتصادي الشامل لبلاد، وأن كانت أغلب مشاريع الري المتطورة لأثيوبيا متركزة على حوض نهر الأواش وليس تأثيرها منصبا على أنظمة النيل الأزرق المائية (أنظر O. Marina, Op. Cit., p. 214).

الخلاصة :

ونأتي في هذه الدراسة الى القول ، بان العلاقات السودانية - الحبشية (الاثيوبية) ، قد تارجحت ما بين التعت في الموقف والمرونة الدبلوماسية وفقا للظروف والسياسات المصاحبة للبلاطين والرغبة المباشرة وغير المباشرة في الإنتهاج لسياسة الأمر الواقع ، تحت دواعي الأمن وبسط السيادة والقانون ، ولمقتضيات المنفعة والإستقرار الأقتصادي في حالات المد للنفوذين الإداري والإقليمي على الحدود من الدولتين والى سنوات من الحرب والأقتال .

خلصت الدراسة عند التطرق لمياه النيل الى المحاولات المبكرة للأحباش والمتكررة لاستخدامه كسلاح ، والتي هدفت الى تليين عريكة السلطنتين الإسلاميتين مصر وسلطنة سنار ، وهو ما فشلت المملكة المسيحية في اثيوبيا ، إرضاءا للغرب الأوربي من الوصول إليه أو الفوز بتحقيقه بالمنطقة من حوض النيل .